الفصل الثانى عشر

وتعصبنا للمأمون لأن الدعاية الفارسية أرادت ذلك!

الفكرة السائدة لدينا تقول : إن محمداً الأمين هو الذى بدأ بخيانة العهد الذى كتبه أبوه هارون الرشيد بينه وبين أخيه عبد الله المأمون ، وإنه هو الذى بدأ فعزل أخاه عبد الله المأمون عن خراسان وعن خلافته فى العرش ، والمأمون فى هذه الحالة رجل أمين معتدى عليه ، ولولا غدر أخيه به لما وقعت الحرب بينهما . فلننظر فى النصوص لنرى حقيقة هذا الموضوع .

يقول اليعقوبى (٢/ ٤٣٦) دون سند ـــ أى أنه هو المسئول عن ذلك الخبر : فأفسد قوم قلب محمد (الأمين) على المأمون وأوقعوا بينهما الشر ، وكان الذى يحرضه على بن عيسى بن ماهان والفضل بن الربيع ، وزينا له أن يبايع لابنه بولاية العهد من بعده ، ويخلع المأمون ، ففعل ذلك وبايع لابنه موسى لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٩٤هـ ، وجمع العهود التى كان قد كتبها الرشيد بينهما فحرقها ، وجرت الوحشة بينهما ، وكتب محمد إلى المأمون يأمره بالقدوم عليه فى جميع القواد ، فكتب إليه يعلمه أنه لا سمع عليه فى هذا ولا

طاعة ، فكتب إلى من بخراسان من القواد فأجابوه بمثل ذلك ، وقالوا : إنما يلزمنا لك الوفاء إذا وفيت لأخيك ، وأنت قد نقضت العهود ، وأحدثت الأحداث ، واستخففت بالأيمان والمواثيق (٢ / ٤٣٦) ..

والحقيقة أن هذين الشابين عندما خلا كل منهما إلى نفسه فى ناحية لم يجد حوله إلا عملاء السوء الذين يزين كل منهم له الغدر بأخيه ، وهذا لا يفهم من الطبرى واليعقوبى بقدر ما يفهم من ابن الأثير ، ويستوقف النظر أن اليعقوبى يذكر هنا (٢ / ٤٣١) فوق الخمسة والعشرين من أجلاء الفقهاء ، فلا فكر الرشيد فى أن يستشير فقيهاً ، ولا فكر فقيه منهم فى الإشارة عليه برأى ، ويبدو هنا بوضوح أن القطيعة كانت كاملة فى مسائل الحكم بين رجال الفقه والعلم من ناحية ، ورجال السياسة من ناحية أخرى ، وهذه ظاهرة يسأل عنها الأمويون ، فهم كانوا أول من ابتعد بالسياسة عن أهل الفقه والعلم والدين، وجعلوا أمور السياسة كلها فى أيدى أنصارهم من رجال الحرب والسياسة ، بل كان للخدم والرقيق والجوارى أثر فى السياسة أكثر مما كان للفقهاء . وقد كان ينتظر أن يهدم العباسيون هذا الحائل المنيع بين السياسة من ناحية ، ورجال الفقه والعلم والدين من ناحية أخرى ، ولكنهم عندما صارت إليهم الخلافة ابتعدوا هم الآخرون عن رجال العلم والدين ، وكان عمادهم على رجال السياسة والحرب ، بل الخدم والرقيق من أنصارهم طبعاً،

حتى هارون الرشيد ـ وهو أقرب رجال بنى العباس الأوائل إلى الدين ـ نجده لا يدخل واحداً من أهل الفقه فى هذا العهد الذى كتبه بين ابنيه ، ما عدا الشهادة ، ومن ناحية أخرى نلاحظ أن رجال الدين والفقه يحرصون على الابتعاد عن السياسة وأهلها محافظة على دينهم وسمعتهم ، بل إنهم كانوا يرون أن اقتراب رجل العلم من السلاطين ومداخلتهم أمر يمس سمعته وأخلاقه ودينه ، وقد حاول ابن المقفع أن يهدم هذا الحاجز بين الدين والسياسة فى كتابه « الصحابة » وأشار إلى أن الحاكم ينبغى أن يجمع أهل العلم ويستشيرهم ويحفزهم على كتابة قانون أساسى للدولة ، وأن يجعل للسلطان نصيباً فى التشريع بحيث لا يصح مثلاً قانون إلا بموافقة السلطان ، فكره الفقهاء منه هذا الرأى وأنكروه إنكاراً شديداً ، كأن ما رأوه من أعمال الأمويين جعلهم يحرصون على المحافظة على الفقه والشريعة وعلم القضاة وأحكامهم ، لا القضاة أنفسهم ، بعيدة كل البعد عن السياسة ورجالها ، وبالفعل نجح الفقهاء فى الاحتفاظ بالفقه والشريعة بعيدة عن سلطان الحكومات ، بل إن التعليم نفسه ظل بعيداً عن سلطان الدولة ، فمن يرد أن يتعلم كان له ذلك فى الكتاتيب والمساجد ، ومن أراد مواصلة العلم استمر فى الدراسة على أيدى كبار الفقهاء والعلماء حتى يحصل الواحد منهم على الإجازة التى تجعله أهلاً لتولى القضاء ، فإذا أراد السلطان اختيار قاض وإقامته فى العاصمة أو فى أى ناحية من نواحى

الدولة اختاره من أولئك الذين علمتهم الأمة وجعلتهم أهلاً للقضاء بعيداً عن أى سلطان من الدولة ، فإذا أصبح واحد منهم قاضياً لم يكن للسلطان دخل فى أحكامه ، وإنما القاضى مستقل بنفسه فى أحكامه ، لا رقيب عليه فى ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

ويقال : إن هذه المحاولة من جانب ابن المقفع كانت بعض السبب فى موته مقتولاً على الصورة الأسيفة التى مات بها ، فإنهم كرهوه وكانوا بين من سعى عليه ودبر موته .

ونلاحظ أن وزير المأمون وصاحب رأيه كان فارسى الأصل ، وهو الفضل بن سهل الملقب بذى الرئاستين ، وهذا الرجل كان منذ البداية كارهاً للعرب ، وراغباً فى نزع الخلافة من الأمين العربى وجعلها فى المأمون الذى كان يراه فارسيّاً أو نصف فارسى ، فإن أمه مراجل الفارسية ، وكان يصفه بأنه ابن أختهم، أما الأمين فكان عربياً هاشمياً صرْفاً ، فإن أباه هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر الأكبر بن أبى جعفر (المنصور) فهو هاشمى من الأب والأم ، ويقال : إنه لم يوجد فى بنى هاشم هاشمى من طرفيه إلا علىّ بن أبى طالب ومحمد الأمين هذا .

والمؤرخون جميعاً يقولون : إن الأمين هو الذى بدأ بخيانة أخيه ومخالفة العهد الذى كان أبوه قد كتبه بينهما ، ولكن الطبرى يروى الخبر التالى (٨ / ٣٧٠) : « وذكر الحسن

الحاجب أن الفضل بن سهل أخبره قال : استقبل الرشيد (وهو مريض مرض الموت قريباً من طوس) وجوه أهل خراسان ، وفيهم الحسين بن مصعب قال : ولقينى فقال (الفضل بن سهل) لى : الرشيد ميت أحد هذين اليومين ، وأمر محمد بن الرشيد ضعيف ، والأمر أمر صاحبك (يريد عبد الله المأمون) مد يدك ، فمد يده فبايع للمأمون بالخلافة ، قال : ثم أتانى بعد أيام ومعه الخليل بن هشام فقال : هذا ابن أخى وهو لك ثقة ، خذ بيعته ، ومعنى ذلك أنه حتى قبل أن يموت الرشيد كان الفضل بن سهل وهو وزير المأمون وصاحب رأيه وهو فارسى - يرى أن تكون الخلافة لصاحبه المأمون ؛ لأن أمر محمد (الأمين) ضعيف فيما رأى ، بل هو بايع للمأمون بالخلافة ، وأخذ يدعو الناس ليبايعوا للمأمون قبل أن يموت الرشيد .

إذن فالبداية بخيانة العهد ومخالفة الميثاق كانت من ناحية المأمون ورجاله أولاً ، لا من ناحية محمد الأمين كما يظن معظم الناس .

ويستوقف نظرنا أن الرشيد الذى حرص على أن يكون قضاته شهوداً على العهد الذى كتبه بين ابنيه وأخذ موافقتهما عليه فى بطن الكعبة لم يشأ أن يجعل للقضاة وأهل الفقه والعلم ووجوه الناس أى دخل فى تطبيق هذا العهد ، مما يدل أنه مثله فى ذلك مثل كل أهل الدول الحاكمة فى تاريخنا ، لم يكونوا يريدون أن يكون للناس من غير وزرائهم وجندهم

وخدمهم يد في شئون الحكم ، ولا يمكن القول هنا بأن هذه الفكرة لم تخطر على بال الرشيد ؛ فهي بديهية ويستبعد أن تكون قد غابت عن ذهن الرشيد ، ولكن رجال الدول عندنا كانوا حريصين جدًا على ألا يكون لأهل الرأى من أهل البلاد دخل في الحكم أو السلطان ، وهذا كان من أكبر أسباب ضعف هذه الدول جميعاً وسرعة تفككها وسقوطها ، وإليك الخبر كما يرويه الطبرى قال (٨ / ٢٨٥) : فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة أمر قضاته الذين شهدوا عليهما وحضروا كتابهما أن يعلموا كل من حضر الموسم من الحجاج والعمار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم ؛ ليفهموه ويعوه ويعرفوه ويحفظوه ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم ، ففعلوا ذلك وقرئ عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام ، فانصرفوا وقد اشتهر ذلك عندهم وأثبتوا الشهادة عليه ، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم ولم شعثهم وإطفاء جمرة أعداء الله وأعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم ، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك . إذن فقد كان كل ما للقضاة ـ وهم رؤساء الناس وأهل الرأى وبقية الناس في ذلك كله ـ هو مجرد الشهادة والمعرفة به وإذاعته في الناس ، وهل يجدى من ذلك كله شيء ؟ إن السياسة أو السلطان السياسى لا يكون إلا إذا كانت تؤيده

قـوة فعـلية من أهـل العلم والرأى ثم عـامة النـاس ، لا مجـرد الشهادة والمعـرفة ، وقد رأينا أن الفضل بن سـهل وزير المامون الفـارسى كـان قـد قرر حـتى قـبل أن يموت الرشـيـد أن تكون الخـلافة من بـعده للمـأمـون الذى كـان الفرس يلقـبـونه بابن أختـهم ، وكـذلك كان طاهر بن الحـسين بن مصعب الـبوشنجى وهو فـارسى الأصل ، وهو الذى سينـشئ الدولة الطاهرية أيام المأمـون ، وهو كـان يلى الفـضل بن سـهل فى بلاط المأمـون من ناحية القوة السياسيـة ، وفى هذه الحال لا تنفع شهادة الفقهاء والقضاة وبقية الناس فى شىء كـما حدث بالفعل ؛ لأن أصحاب الدول عندنا كانوا غـيورين جداً على سـلطانهم ، لايرضون بأن يكون للناس فيه أى نصيب إلا إذا كان رجالهم من وزراء وكتاب وحـجاب وجند وخدم .

بل كـان كل رجال الدولة يعـرفـون ذلك ولا يؤمنون بشىء مما ورد فى العـهد الذى كتبه الرشيد بين ابنيه ، فقد كان مع عبد الله المأمـون نفـر من القـواد والجـنـد ، بمجـرد أن علمـوا بوفـاة الرشيـد نراهم يتركـون المأمون ويسرعـون إلى بغداد مـخالفين بذلك ما عـهد إليـهم فيـه الرشيـد من لزوم المأمون والبـقاء إلى جـانبـه ، ويقـول فى ذلـك الطبـرى (٨ / ٣٧٠) : قـال (يريد الطبرى) : ولما قـرأ الذين وردت عليهم كـتب محـمد بطوس من القـواد والجند وأولاد هارون تشـاوروا فـى اللحـاق بمحـمـد . (الأمـين) فقـال الفضل بن الربيع (الذى سيـصبح وزير الأمين

ورجله الأول وهو عربى) : لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدرى ما يكون من أمره ، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد ، وتركوا العهود التى كانت قد أخذت عليهم للمأمون ، فانتهى الخبر بذلك من أمرهم إلى المأمون (بمرو ..) .

وهذا الفضل بن الربيع ـ الذى كان ينبغى أن يكون من رجال المأمون سيكون كبير رؤساء الناس فى حربه قائداً ووزيراً للأمين .

وهذا هو طراز رجال السياسة فى ذلك العهد : لا ذمة ولا عهد ولا ضمير ، ومع ذلك فقد كانوا هم رجال الرشيد ورجال أولاده ! أما القضاة والفقهاء والعلماء وأعيان الناس فلم يكن لهم من ذلك كله إلا الشهادة ، وكان ينبغى على الرشيد أن يجعل القوة والسلطان فى أهل العلم والدين وأعيان الناس ، لا فى رجال السياسة ، وقد رأينا كبارهم : الفضل بن سهل الذى بايع للمامون قبل أن يموت الرشيد ، والفضل بن الربيع الذى فضل أن يخالف عهد الرشيد وترك المأمون وأسرع إلى الأمين وهو يقول : « لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدرى ما يكون من أمره » وأمر الناس بالرحيل .. فرحلوا ، فهم كما نرى أهل مصلحة دنيوية ، وهم أنانيون لا يؤمنون على شىء . وهذا يدلنا على أن ما فعله الرشيد من كتابة العهد بين ابنيه وإشهاد الناس عليه لم تكن له أية قيمة من الناحية الفعلية ؛ لأن رجال السياسة

والحرب فى تلك الأيـام كانوا من أسوأ الناس أخـلاقاً وأفسدهم ضميراً ؛ لأن السيـاسة كلها كـانت قد انفصلت بكل رجـالها عن الأمة والناس ، وكذلك كان رجالها ، وهم عندما فعلوا ذلك فقدوا الأخلاق والضمير ، ولم يكن على أحد منهم سلطـان إلا صالحه وصالح ســادته من رجال السياســة والحكم ، وهؤلاء كانوا فى الغالب مـن أبعد الناس عن الدين والأخـلاق ؛ لأن الأخلاق تكون من عند الله ، ولكـن الشـعب هو الذى يؤيدها ، وهـو المؤمن بهـا الشاهد عليها ، ولن تعود الأخـلاق إلى رجال السياسة عندنا إلا فى العصـر الحديث عندما يذكـرنا أهل الغرب أن الأمم هى أصل الحقوق ، ورجالها هم الرقبـاء على الخير والفضل ، وهذا هو ما يتجلى فى الدساتير .

والآن فلننـظر كـيف بدأ الخـلاف بين الأخـويـن ؛ لعل ذلك يعرفنا المسئول من الأخوين عما كان بينهما من شر وحرب .

تـعبت تعـبـاً شديداً فى الـبحث عن بـداية الخصـومـة بين الأخوين ؛ لأن مراجعنا تكثر الكتابة وتخلط خلطاً لا يسهل معه معرفـة الحقيقة فى مـثل هذا الموقف ، ولكننا رأينا أن الفضل بن ســهل كبـير رجــال المأمون كـان قد عـزم ـ حتى قـبل أن يموت الرشيد ـ على خيانة الأمين وجعل الخلافة للمأمون . ثم إنه بعد أن توفى الرشـيـد وتولى الأمين الخـلافـة نجـده يرتب لأخـيـه المأمون خطاباً كلـه مودة وإقرار لما كـان أبوهما الرشيـد قد أراد لهمـا ، وفى هذا الخطاب يقول الأمين لأخـيه المأمـون : .. فقم فى

أمرك قيام ذى الحزم والعـزم ، والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعامة المسلمين ، وإياك أن يغلب عليك الجزع فإنه يحبط الأجر ، ويعقب الوزر ، وصلوات الله على أمير المؤمنين حـياً وميتاً ، وإنا لله وإنا إليه راجعون . وخذ البيـعة عمن قبلك من قوادك وجندك وخـاصـتك وعامـتك لأخـيك ثم لنفسك ، ثم لقـاسم ابن أمـيـر المؤمنين، على الشريعة التى جعلها لك أمـير المؤمنين من نسخها له وإثباتها ، فإنك مقلد من ذلك ما قلدك الله وخليفته ، وأعلمْ مَنْ قِبَلَكَ رأيى فى صـلاحهم وسـد خلتهم والتوسـعة عليـهم ، فمن أنكرته عند بيعته أو اتهمته على طاعته ، فابعث إلىّ برأسه مع خـبره ، وإياك وإقـالتـه فـإن النار أولى به ، واكتـب إلى عمـال ثغـورك وأمراء جندك بما طرأك من المصـيبـة بأمـيـر المؤمنين .. ومُرْهُمْ أن يأخذوا البيعة على أجنادهم وخواصهم وعوامهم على مـثل مـا أمرتك به من أخـذها على من قـبلك ، وأوعـز إليـهم فى ضـبط ثغورهم ، والقـوة على عـدوهم ، وأعلمهـم أننى متـفقد حالاتهـم ولامٌّ شعثـهم وموسع عليـهم .. واعمل لما تأمـر به لمن حضـرك أو نأى عنك من أجنادك على حـسب ما ترى وتشـاهد ، فإن أخاك يعرف حسن اختيارك وصحة رأيك وبعد نظرك ، وهو يستـحفظ الله لك ويسأله أن يشـد بك عضده ويجـمع بك أمره ، إنه لطيف لما يشاء » .

وحتى إذا عرفنا أن هذا الخطاب وأمثـاله من كتابة كاتب من كتاب الأمين هو بكر بن المعتمر ، فإن الأمين يقرر أنه من إملائه ،

وهو على أى حال يدل على نفس طيبة وفية سليمة ، خاصة أنه كتب فى نفس الوقت مثل هذا الكتاب إلى أخيه صالح ، وكان يتولى بلاد الشام . وإلى نفر آخر من رجال الدولة ، وهو فى خطاباته كلها يؤكد على ضرورة التزام ما شرط الرشيد عليه وعلى أخيه .

ومثل هذه الخطابات تدل على أننا لسنا أمام شاب بالتفاهة التى تصورها لنا المراجع ، فقد كان رجلاً عارفاً بمسئوليته ، محافظاً عليها ، راعياً لحقوقه وحقوق غيره . وهذا لا يمنع من أنه كان يحب المرح والمسرة واللهو واللعب ، فهذه كانت طبيعة الحكام فى تلك العصور ، ثم إنه كان ـ كما ذكرنا ـ صغير السن لا تجاوز سنه ثلاثاً وعشرين سنة هجرية .

مثل هذه الروح لا نجدها عند المأمون قط ، فليس لدينا كتاب مثل هذا إلى أخيه ، بل إننا نجد الفضل بن سهل ـ وزير المأمون وصاحب رأيه ـ سىء الرأى من أول الأمر لا يفكر إلا فى عزل الأمين وتولية المأمون . واقرأ ـ مثلاً ـ ما يرويه الطبرى (جـ ٨ ص ٣٧١ وما بعدها) من تفاصيل سوء النية وسوء فساد الطوية ، وأرجو ألا يشغلنا عن حسن النظر فى الأمور ما نقرأ من اهتمام الأمين بشئون التسلية وإنشاء الميادين للصوالجة (لعبة تشبه البولو) فهذا مزاج ، ولكنه شىء والصلاحية للحكم شىء آخر . حتى فى المسائل العائلية نجد الأمين أميناً كريماً حافظاً للواجب .